تطور الخطابة الإسلامية المحاضرة الرابعة ثالثة دعوة وثقافة

1-نشأة الخطابة العربيّة:

مما لا شكّ فيه أن عرب ما قبل الإسلام كانت لهم خطب قوية وأنهم اعتمدوا عليها في مواقفهم الهامة والمصيريّة واستعملوها في مجتمعاتهم ودعواهم للحرب والغزو أو السلم والسلام فقد ذهب الكثير من هذه الخطب مع الزمن وحفظ لنا التاريخ قليلاً منها كما حفظ أسماء خطباء كانوا مشهورين ولم يبقَ من خطبهم شيء وذلك لفشوّ الأمية ، وبُعد الزمن.

وقد كانت أسباب الخطابة متوفرة لعرب ما قبل الإسلام أي الجاهلية، فهم متمتعون بحرية قلما توفرت لغيرهم ولهم مقدرة قوية على الحديث، واللغة العربية ذات نغم يثير المتكلم والسامع ويبعث الخطيب على الاستمرار في حديثه ولهذا كانت لهم مقدرة على الكلام المرتجل ومواجهة المواضيع التي تطرأ من غير أن يكونوا قد اعدوا له حديثاً من قبل، وعلى هذا النمط الارتجالي تأتي على ألسنتهم العبارات البليغة والحكم الصائبة قال الجاحظ : « فما هو إلا أن يصرف العربي همه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني إرسالاً وتنهال عليه الألفاظ انتهالاً "» ولا يعني هذا أن كلّ خطابهم كانت مرتجلة.

2-أغراض الخطابة الجاهليّة:دارت الخطابة الجاهلية فى نطاق البيئة الّتي نشأت وترعرعت فيها، فكانت خطابة بطولة وفروسيّة يفوه بها الخطباء للدعوة إلي القتال والحضّ على النزال،وكانت خطابة دفاعٍ أو صلحٍ وسلام؛وكانت خطابة مفاخرة أو منافرة أمام حكم يحكم، أوفي حضرة ملكٍ تميل بميله كفّةُ الميزان. وكانت خطابةُ زهدٍ تدعو الناس إلي الصدوف عن بهارج الدنيا والتعلّق بحبال الآخرة؛ وكانت خطابة كهّان يسجعون سجع الحمام فى سبيل هدف غيبيّ يُطلقون وراءَه الأقاويل ، وينصبون على جوانبه الأحابيل؛ كانت خطابةُ زواج يُعقَ ويبارک، أو خطابةُ موتٍ يُلمّ فيفجع، ويرمي القلوب في هوّةٍ سحيقةٍ من الحزن، ويحمل على التأمّل في حقيقة الوجود؛ وكانت أخيرا خطابة وصايا يتوجه بها الطّاعنون في السنّ إلي أبنائهم أحفادهم للسير بهم فى سبيل الخير والشرف...

وأما قيمةُ هذه الخطب من حيث الفصاحة و البلاغة نجدها في ذروة البيان خاصة عند الكهّان وأشباههم من الذين يتسلّحون بذرابة اللسان وعنف البيان، ونستطيع القول بأنّ الأمة العربية قد بلغت من الفصاحة والبلاغة والبيان ما لم تبلغه أمة من الأمم قبلها أو بعدها وكان الشعراء والبلغاء هم فخر القبيلة وعزها ومجدها وإذا قالوا فقولهم كان بمثابة التنزيل عند أقوامهم وإذا تكلموا فكلامهم رافع خافض ، وبلغ من عز الكلمة وشرفها ومكانتها أن كانت تعلق في جدران الكعبة أقدس مكان عندهم وأعز بنيان لديهم وكان من أشهر خطباء العرب : قس بن ساعدة الأيادي ، وقيس بن خارجة بن سنانة خطيب داحس والغبراء ، وعتبة بن أبى ربيعة، سهيل بن عمرو الأعلم، ونفيل بن عبد العزّى، وابو عمّار الطائي، وهانى بن قَبيْصة، وسعد بن الربيع و...

3-نموذج من خطب الجاهلية لقسّ بن ساعدة الإيادي: هو خطيب العرب قاطبة، وبه يضرب المثل في البلاغة والحكمة كان يدين بالتوحيد، ويؤمن بالبعث، ويدعو العرب إلى نبذ العكوف الى الاصنام وعبادتها،ويهديهم ويرشدهم الى عبادة الخالق.ومن خُطَبِه التي

خَطبها في سوق عكاظ قبل البعثة النبويّة نأتي بهذا الخطبة كنموذج للخطب الجاهليّة وهي:أيّها النّاس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات:وكلّ ما هو آتٍ آت، ليلٌ داجٍ ونهارٌ ساجٍ وسماءٌ ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحارٌ تزخر وجبال مُرساة، وأرض مُدحاة وأنهار مُجراة، إنَّ في السماء لَخبراً وإنَّ في الأرض لعِبراً ما بال النّاس يذهبون ولا يرجعون أَرضوا فأقاموا؟أم تُركوا فناموا؟يقسم بالله قسماً لا إثمَ فيه إنَّ لله ديناً هو أرضى لكم وأفضلُ من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكراً. ففي الخطبة المذكورة أعلاه أنّ خطيب العرب وحكيمها يعتمد على أسلوب السجع الموسيقيّ بعبارات قصيرة وتشابيه واستعارات كثيرة ،شديدة الوقع في قلب السامع وعاطفته.يقول الفاخوري :«انّه ينقض بخطبه على سامعيه انقضاضاً لكي يقتلعهم من ذواتهم الماديّة وينلهم الى ذواتهم الروحيّة فيرتفعوا من صَنَميّتهم الى عبادة الله الحقّ. وهكذا فخطابته رسالة تبشيريّة تُوقظ الضمائر وترغب في الخير والحسنى.

4-الخطابة الإسلامية نشأنها وتطورها:فجّر الإسلام الكثير من الطاقات البشريّة الكامنة عند الإنسان العربيِّ حين تجسّد في عقولهم وصدورهم؛ حيث قدّم لهم الحوافز الفكريّة والوجدانيّة لتظهر فصاحتهم وبلاغتهم الأدبيّة بأجلى مظاهرها في هذا العصر ، ثمّ إنّ التبدّل السياسي والاجتماعي والاقتصادي في حياة الناس جاء ليشحّذ أذهانهم ويكثر من دواعي القول عندهم، وذلک حين أصبحت الخطابة لسان الدعوة الإسلاميّة وأداتها الأولى الّتي تدعو العرب إلى نبذ العقائد الجاهليّة، وتحثّهم على الدخول في الإسلام واعتناقه الّذي يخرجهم من الظلمات إلى النور؛ وليس هناك دليل على تغيير الإسلام للأحوال الدينية والخلقية عند العرب، أكبر من قول جعفر بن أبي طالب للنجاشي: «كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا». هكذا تغلغل الإسلام في كل مظاهر الحياة عند العرب، فكان لذلك أثره القوي في الخطبة. ولها دورها الخاص في الحياة اليومية للمسلمين لتقريب تعاليمها إليهم وتعميق فهمهم لدينهم الجديد وتبين أحكامه في الحلال والحرام ووتنظيم علاقاتهم ومصالحهم، وحلّ مشاكلهم في ضوء مبادئه وأحكامه.وكان للخطابة دور هام في موضوع الجهاد والفتوحات الإسلامية حين كان القادة والمرشدون الدينيون يلهبون مشاعر عساكرهم بما أعدّ الله من خير للمجاهدين والشهداء فيتسابقون إلى ميادين الحرب والقتال من غير خوف أو رعب يرُجف الصدور لتحقيق النصر أو الشهادة في سبيل الله، كلّ هذا الايمان مرضاةً لله جلّ وعلا«عجلّتُ إليک ربّي لترضى»